من تراب (١٦٣) بطولات مغلوطة [*] الطريق!

شدنى عمود زميل مجمع البحوث الإسلامية، العلامة الجليل الدكتور محمد رجب البيومى، بصوت الأزهر (١١/١٤) - إلى قضية بالغة الأهمية، يجرى فيها الخلط والتخليط بين البطل وله معايير قوامها نبل الغاية وسلامة القصد واستقامة الوسيلة والسلوك، وبين السفاح أو القرصان الذى وإن خالطت البطولة (الظاهرية) أفعاله، إلاّ أنها لا تندرج فى شرف الغاية أو الفعل والسلوك !

لم يكن النفخ الضرير فى عملية سطو تصادف إبان الحرب العالمية الأولى أن كانت على قطار محمل بأسلحة للإنجليز، سطا عليه وسرقه أدهم الشرقاوى، مبررًا لجعله بطلا مغوارًا، تكتب حوله وفيه القصص والتمثيليات، دون أن تتنبه إلى أن هذا السلاح استخدم فى مزيد من السطو والجث والقلع والقتل والسلب والنهب والاغتصاب !

لم يكن هذا النفخ الضرير هو الأكذوبة الوحيدة التى جعلت من القرصنة بطولة شعبية تنطلى على البسطاء، وتنسج حولها الحكايات والأشعار، ليتناقلها الناس ويرددوها بلا وعى ولا عقل ولا فهم ! .. وإنما كتبت تحت عنوان " البطولة "و" الأبطال " - سير عديدة شرقية وغربية للصوص أو قراصنة ولجبابرة جعلتهم الحكايات الشعبية والأشعار أبطالاً بلا بطولة، وروجت دون أن تدرى للقرصنة واللصوصية والجبروت، وكان من طرائف هذه التأثيرات أن ينسج الكاتب الفرنسى موريس لبلان روايات

(*) المال ٢٠٠٨/١١/١٧

أرسين لوبين تحت عنوان : " اللص الشريف " .. مع أن الشرف بعيد عن اللصوصية بعد السماء عن الأرض، وبريء منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب !

الخطير أن هذه الظاهرة القديمة، جعلت تدخل الآن بأردية وألبسة جديدة فى دنيا الناس .. مع غياب العقل والفهم صارت تنطلى على البسطاء العناوين البراقة للصوص وقراصنة سلب ونهب من نوع جديد، لعل أظهر الأمثلة عليها عينات من المتصدين للعمل العام بدعوى أن كلا منهم " طبيب الملايين "، فى يده مبضع سحرى يزيل به كل آلام البشر ويحقق آمالهم ! أعرف نماذج للصوص نهبوا وسلبوا واستولوا تحت عنوان القروض والتسهيلات الائتمانية، على أموال البنوك وغيرها من الأموال العامة، ثم عادوا فاستخدموا ذات هذه الأموال المستولى عليها فى الترويج لأنفسهم للدخول إلى المواقع البرلمانية أو الشعبية أو الرياضية، وللبس أثواب الإصلاح وسرقة ألقاب الزعامة والرئاسات الشعبية أو المحلية أو الرياضية، مطعمة بألقاب البرّ أو الحج أو الصلاح، لينطلى أمرهم على الناس، ويبوءوهم مكانة غير مستحقة، تصاحبهم موتى كما صاحبتهم أحياءً، بينما هم أبعد الناس عن استحقاق هذه المكانة التى سلبوها سلبًا لدى قلوب البسطاء الطيبين !

أخطر من شر وخداع هؤلاء الأشرار، غياب وعى وفهم الناس وانطلاء الحيل والمخاتلات عليهم، مع أن واقع انحراف وجنوح هؤلاء فى ماضيهم واقع قريب، كان مشهودًا من سنوات قليلة، حملت الصحف أخباره وفصوله وجرائره وبلاياه، وحملت فيما حملت ما زاوج هذا الجنوح والاستلاب، من تنعم بحصاده فى زيجات أو علاقات آثمة مشتراة، أو فى ممارسة المزيد من الفساد فى الحياة السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية وفى كل باب يمكن التوسل بالمال إلى اقتحامه أو ارتياده تحت عناوين مغلوطة تنطلى على البسطاء، وإن لم تنطل على العارفين الذين ربما دخلوا فى مقايضات باعوا فيها سكوتهم أو آثروه طلبًا للسلامة وتجنبًا لقدرة المال على الانتقام !

هل يمكن أن تعود الإنسانية فى حاضرها المعاصر إلـــى أحبـولة " اللص الشريف " ؟! .. إن كثيرًا مما نشاهده الآن فصول تكاد تكون معادة - ولكن بأثواب مختلفة - لظاهرة اللص الشريف، مشاهيرها لصوص سرقوا المال أو أفسدوا وأمعنوا فى الإفساد، ثم ارتدوا مخادعين ثـوب الـشرف والعطاء العام فانطلى أمرهم على الغافلين، وأفسحوا لهم المجـال، وربمـا أقاموا لهم الميادين أو أطلقوا أسماءهم على الشوارع والطرقات والأماكن !

هل يوجد أشر وأدعى للرثاء من هذه المشاهد الجهولة التى غاب فيهـا العقل وغابت الفطنة وأصيبت العيون بالعماء ؟!

أيها الشرف .. كم من الجرائم ترتكب باسمك ؟!